أثر الورد اليومي في تدبر القرآن وتحقيق آثاره

مقدم للمؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن

والذي تنظمه الهيئة العالمية لتدبر القرآن في الفترة من ٢-٥ يوليو ٢٠١٣م

المحور الثاني

الأستاذ الدكتور
محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
وكيل كلية القرآن الكريم، جامعة الأزهر
Prof.mlatif@hotmail.com
هاتف ٠٠٢٠١٠٩١٢٨٤٥٥١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلأن القرآن الكريم يتشكل من نسق من المفاهيم إذا تتحقق كليات الإسلام بتحقيقها ، وتفوت بفواتها ؛ كانت خلاصة ما يطلبه المسلم من القرآن فهمٌ صحيح يسوق إلى عمل سليم ، إذ يترتب على معرفة مراد الله عز وجل وفهمه لزوم كمال الامتثال له.

ولأن الإنسان في مسيرة حياته يحتاج إلى دليل ينير له الدروب، ويقيه المزالق والعثرات؛ كان لابد له من التردد المنظم والراتب بالبصر والبصيرة على آيات الله عز وجل، بمعنى أن يكون للمسلم ورد قرآني لا يطغى فيه الكم على الكيف، فتنمحي بهذا الطغيان آثار الورد وثمراته، ويصبح القارئ مجرد آلة تردد دون أن تحقق الفائدة المرجوة من هذا الترديد، وفي الوقت نفسه لا يشغل فيه الكيف عن المرور بآيات الله تعالى من أولها إلى آخرها مرورًا ينفي عن صاحبه صفة هجر القرآن التي يشكو الرسول ﷺ صاحبها إلى ربه عز وجل.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة مسألة أثر الورد اليومي في تدبر القرآن وتحقيق آثاره بهدف ضبط تعامل المسلم مع كتاب الله عز وجل بفقه الموازنة بين الكم والكيف، بحيث لا يطغى الأول على الثاني، ولا يهدر الثاني الأول.

وقد اتبعت في هذه الدراسة **المنهج الوصفي التحليلي**، وجاءت في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة فبينت فيها أهمية الموضوع وخطة عملي فيه.

وفي المبحث الأول بينت مدلول الورد ، ومشروعيته، واختلاف أهل العلم في مقداره، ثم بينت الرأي الراجح في مقداره.

وفي المبحث الثاني بينت أثر الورد اليومي في تدبر القرآن وتحقيق آثاره ، والتي تتجلى في مصاحبة القرآن في كل حال، والتعلق الوجداني به، وترسيخ مبدأ المرجعية القرآنية، والتفاعل مع النص القرآني، والانتقال من المعاني المقصودة أصلاً إلى المقصودة لزومًا، وتحقق النظرة الكلية والرؤية المقاصدية، وصيانة النص القرآني من الشطحات الذاتية، وتحقق الغاية النهائية للورد، وفرز أصحاب الأوراد لأنفسهم.

وفي الخاتمة ذكرت أهم نتائج الدراسة، ثم أتبعتها بقائمة المراجع.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصا لوجهه، وان ينفعني والمسلمين به في الدنيا والآخرة.

المبحث الأول

مدلول الورد ومشروعيته ومقداره

مدلول الورد:

الورد بالكسر: الجزء، يقال: قرأت وردى، أي النصيب من القرآن، ويقال: لفلان كل ليلة ورد من القرآن يقرأه، أي مقدار معلوم إما سبع، أو نصف السبع، أو ما أشبه ذلك.(١)

قال أبو أسيد رضي الله عنه: نمت البارحة عن وردي حتى أصبحت، فلما أصبحت استرجعت، وكان وردي سورة البقرة، فرأيت في المنام كأن بقرة تنطحني.(٢)

ويطلق على الورد القرآني مصطلحات أخرى:

أولها: الحزب: قال ابن فارس:"الحاء والزاي والباء أصل واحد وهو تجمع الشيء ، فمن ذلك "الحزب" الجماعة من الناس، قال تعالى:﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٣) والطائفة من كل شيء حزب، يقال: قرأ حزبه من القرآن".(٤) قال الزمخشري:"والحزب فى الأصل: الطائفة من الناس، فسمى الورد به؛ لأنه طائفة من القرآن".(٥) وقال ابن الجزري:"الحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالوِرد، ومنه حديث أوس بن حذيفة: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟".(٦)

وقد استخدم رسول الله ﷺ هذا المصطلح في قوله:"من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كتب له كأنما قرأه من الليل".(٧)

وهذا الحديث يدل على مشروعية اتخاذ ورد من القرآن الكريم في الليل، وعلى مشروعية قضائه، إذا فات لنوم أو لعذر من الأعذار، وأن من فعله ما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر كان كمن فعله في الليل.(٨)

ولما قال له أصحابه رضي الله عنهم: لقد أبطأت علينا الليلة، قال ﷺ:"إنه طرأ على حزبي من القرآن،

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: و ر د.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٣٦.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٣.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة ح ز ب.

(٥) الفائق للزمخشري ٣٥٨/٢.

(٦) انظر: النهاية في غريب الأثر لابن الجزري ٣٧٦/١ بتصرف.

(٧) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ٥١٥/١ (٧٤٧).

(٨) انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري ١٥٠/٣.

فكرهت أن أخرج حتى أتمه".(١) ولهذا قال ابن القيم:" كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يخل به".(٢)

كما بوب بعض أئمة الحديث كأبي داود، ومالك، وابن عبد البر بتحزيب القرآن.(٣) وقال نافع:"لا تقل: ما أحزبه".(٤) أي لا تنكر من التحزيب، واتخاذ كل جزء حزبا له.(٥)

ثانيها: الجزء: وقد ورد مصطلح الجزء مراداً به الورد في قول رسول الله ﷺ:"قرأت جزءًا من القرآن"(٦) وهو المعنى من الحزب.(٧)

واستعملته السيدة عائشة رضي الله عنها بهذا اللفظ أيضًا في قولها:"إني لأقرأ جزئي، أو قالت حزبي، وإني لمضطجعة على السرير".(٨)

وعن سعيد بن جبير أنه قال: ربما نزلت وأنا في السفر لأقضي حاجتي من الغائط والبول، فما ألحق بأصحابي حتى أقرأ جزءًا من القرآن قبل أن أتوضأ.(٩) وعنه أيضًا أن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم كانا يقرآن أجزاءهما بعدما يخرجان من الخلاء.(١٠)

مشروعية الورد القرآني:

تضمنت السنة النبوية المطهرة أدلة كثيرة على مشروعية الورد القرآني، ومنها ما يأتي:

١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:" اقرأ القرآن في شهر" قلت: إني أجد قوة، حتى قال:" فاقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك".(١١)

٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"من نام عن حزبه، أو عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب في كم يستحب يختم القرآن ٤٢٧/١ (١٣٤٥).

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٤٨٢/١.

(٣) انظر: سنن أبي داود ٥٥/٢، والموطأ للإمام مالك ٢٠٠/١، والاستذكار لابن عبد البر ٤٧٥/٢.

(٤) انظر: سنن أبي داود ٥٥/٢.

(٥) انظر: عون المعبود ١٨٨/٤.

(٦) أخرجه أبوا داود في الصلاة ، باب تحزيب القرآن ٥٥/٢ (١٣٩٢).

(٧) انظر: عون المعبود ١٨٨/٤.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٤٠/١. وفي قول عائشة رضي الله عنها دليل على جوز قراءة القرآن على كل هيئة يتيسر للإنسان قراءته عليها، سواء كان القارئ جالسا أو نائما أو ماشيا في الطريق، بشرط أن تكون هذه الهيئة مصحوبة بالتوقير والتعظيم القلبي.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٩/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٨/١ .

(١١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن ١٩٢٦/٤ (٤٧٦٧) .

شيء منه؛ فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كتب له كأنما قرأه من الليل". (١)

٣) عن أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، فكان يأتينا كل ليلة بعد العشاء، فيحدثنا قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه، وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش، فلما كان ذات ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلت: يا رسول الله، لقد أبطأت علينا الليلة، قال:"إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أخرج حتى أتمه" قال أوس: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل. (٢)

وتتجلى حكمة مشروعية الورد القرآني في تحقيقه لهدي الرسول ﷺ في المداومة على العمل الصالح، وفيه تأس بالسلف الصالح في حرصهم على ذلك، فضلا عن الالتزام بالأمر النبوي بتعاهد القرآن الكريم حتى لا يتفلت من الإنسان ما حفظه ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "تعاهدوا هذا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها". (٣) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:"إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت". (٤)

والمراد بالصاحب: الذي ألفه. قال عياض: المؤالفة المصاحبة، أي ألف تلاوته، وهو أعم من أن يألفها نظرًا من المصحف أو عن ظهر قلب؛ فإن الذي يداوم على ذلك يذل له لسانه ويسهل عليه قراءته، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة، وشقت عليه. (٥)

شبه ﷺ درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يخشى منه الشراد، فما زال التعاهد موجودا فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدودا بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل بالذكر؛ لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة. (٦)

ومن حكم مشروعية الورد القرآني أن صاحبه يحظى بالفضل المترتب على قراءة ورده، وهو الفضل الذي دلت عليه نصوص قرآنية ونبوية، ومن هذه النصوص ما يأتي:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب في كم يستحب يختم القرآن ٤٢٧/١ (١٣٤٥).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن ٥٤٥/١ (٧٩١).

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن ٥٤٣/١ (٧٨٩).

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧٩/٩.

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

- قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾.(١)
- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:"الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران".(٢)
- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف".(٣)
- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه".(٤)

مقدار الورد القرآني:

- استحب ابن قدامة المقدسي أن يُقرأ القرآنُ الكريمُ كاملا في كل سبعة أيام، ليكون له ختمة في كل أسبوع، وإن قرأه في ثلاث فحسن.(٥)
- والسبع أولى عند ابن تيمية، ولهذا قال:" لم يُعلم من الصحابة رضي الله عنهم على عهده ﷺ مَن دوام على ذلك؛ أعني على قراءته دائماً فيما دون السبع؛ ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يقرؤه في كل سبع".(٦) وعن القاسم بن عبد الرحمن قال كان عثمان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وبالأنعام إلى هود وبيوسف إلى مريم وبطه إلى طسم موسى وفرعون وبالعنكبوت إلى ص وبتنزيل إلى الرحمن ثم يختم فيفتتح ليلة الجمعة ويختم ليلة الخميس، وعن شعبة عن محمد بن ذكوان رجل من أهل الكوفة قال سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة وفي رمضان في ثلاث باب سيرة تميم الداري رضي الله عنه.(٧)

---

(١) سورة فاطر: ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة عبس١٨٨٢/٤ (٤٦٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر١٧٥/٥ (٢٩١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن ٥٥٣/١ (٨٠٤).

(٥) انظر: المغني لابن قدامة ٤٥٩/١ .

(٦) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ٤٠٧/١٣.

(٧) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني ٣٢٣/١،٣٢٥.

- وترخّص جماعات من السلف في ختمه في أقلّ من ثلاثة أيام، ومنهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.(١)
- وكره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة.(٢)

قال ابن كثير: "وقد كره غيرُ واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق بن راهويه، وغيرهما من الخلف. . . وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به.(٣) فقوله: لا تغلوا فيه أي: لا تبالغوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبر غالباً، ولهذا قابله بقوله: ولا تجفوا عنه أي: لا تتركوا تلاوته".(٤) تلاوته".(٤) فالجفاء عنه التقصير، والغلو التعمق فيه، وكلاهما شنيع، وقد أمر الله بالتوسط في الأمور.(٥)

وسب كراهة السلف لذلك أن رسول الله ﷺ قد صرح في حديث سابق بأنه لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث ليال، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة.(٦)

ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وهو من الذين جمعوا القرآن في حياته ﷺ (٧) كره أن يُقرأ القرآن الكريم في أقل من ثلاث، كما قال أبو العالية، وقد ذكره ابن كثير وصححه.(٨)

ورووا عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: "من قرأ القرآن في أقل من ثلاث؛ فهو راجز".(٩) وإنما سماه راجزا لأن الرجز أخف على لسان المنشد، واللسان به أسرع من القصيد، قال أبو إسحاق: إنما سمي الرجز رجزا؛ لأنه تتوالى فيه في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون إلى أن تنتهي أجزاؤه، يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها، وهو أن تتحرك وتسكن، ثم تتحرك وتسكن، وقيل: سمي بذلك لاضطراب أجزائه وتقاربها، وقيل: لأنه صدور بلا أعجاز.(١٠)

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص١٣٦.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ٣٢/١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٢٨/٣. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. انظر : مجمع الزوائد ٣٦/٨.

(٤) انظر: فضائل القرآن لابن كثير ص١٣٥–١٣٦.

(٥) انظر: فيض القدير للمناوي ٦٤/٢.

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٣١٥/١ (٧٤٦).

(٧) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٢٦٧/٦ .

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٤٢/٢ ، وانظر: فضائل القرآن لابن كثير ص١٣٦ .

(٩) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٤٢/٩ (٨٧٠١–٨٧٠٥) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٢٦٩/٢.

(١٠) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة ر ج ز.

ولم يجوز ابن حزم قراءة أكثر من ثلث القرآن في يوم وليلة، وقال: "فإن قيل: قد كان عثمان يختم القرآن في ليلة؟ قلنا: قد كره ذلك ابن مسعود، وقال تعالى:﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (١) وسنة رسول الله ﷺ كما ذكرنا. فإن ذكروا حديثا حديثا رويناه عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبي ﷺ كيف أقرأ القرآن؟ قال:"اقرأه في يوم وليلة، لا تزد على ذلك" قلنا: إن رواية عطاء لهذا الخبر مضطربة معلولة، وعطاء قد اختلط بآخره، وقد روينا هذا الخبر نفسه من طريق حماد بن سلمة عن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال له:"اقرأ القرآن في شهر" قال: فناقصني وناقصته. قال عطاء: فاختلفنا عن أبي، فقال بعضنا: سبعة أيام، وقال بعضنا: خمسة. فعطاء يعترف باختلافهم على أبيه وأنه لم يحقق ما قال".(٢)

الراجح في مقدار الورد القرآني:

أكثر العلماء – وهو ما أرجحه – يرون أن الورد القرآني لا تقدير فيه، وأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمن كان من أهل الفهم وتدقيق النظر والفكر؛ استحبوا له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بالمقصود من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر من القرآن الكريم على القدر الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرأه هذرمة.(٣)

قال النووي:"والمختار أنه يستكثر منه ما يمكنه الدوام عليه، ولا يعتاد إلا ما يغلب على ظنه الدوام عليه في حال نشاطه وغيره، هذا إذا لم تكن له وظائف عامة أو خاصة يتعطل بإكثار القرآن عنها، فإن كانت له وظيفة عامة كولاية وتعليم ونحو ذلك فليوظف لنفسه قراءة يمكنه المحافظة عليها مع نشاطه وغيره، من غير إخلال بشيء من كمال تلك الوظيفة، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف".(٤)

ويؤيد ذلك قول أوس بن حذيفة الثقفي: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل.(٥)

وعقب أصحاب هذا القول على الروايات الواردة عن عبد الله بن عمرو بن العاص بأنه لا مانع أن يتعدد قول النبي ﷺ لعبد الله تأكيدا، وكأن النهي عن الزيادة ليس على التحريم، كما أن الأمر في جميع ذلك

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) المحلى لابن حزم ٣/٥٣–٥٤ بتصرف.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩/٩٧، وتحفة الأحوذي ٨/٢١٨، والهذرمة بالذال السرعة في القراءة والكلام، يقال: هذرم وِرْدَه أي هذّه. انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: هـ ذ ر م.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٨/٤٣.

(٥) سبق تخريجه.

ليس للوجوب، وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السياق، وهو النظر إلى عجزه عن سوى ذلك في الحال أو في المآل.(١)

ويدل على ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمرو نفسه من أنه قال: قلت: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال:"اختمه في شهر" قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال:"اختمه في عشرين" قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال:"اختمه في خمسة عشر" قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال:"اختمه في عشر" قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال:"اختمه في خمس" قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فما رخص لي.(٢) أي في أقل من الخمس.(٣)

وفي ضوء ذلك نفهم لماذا اختلفت أحاديث المصطفى ﷺ في مقدار الورد القرآني، فقد كان يأمر كل إنسان بما يناسبه في الحال أو المآل.(٤)

ويكره أن يؤخر ختمة القرآن أكثر من أربعين يوما، فأقل ما يجزئ من القراءة في كل يوم وليلة جزء من أربعين جزءا من القرآن، حكي ذلك عن إسحاق بن راهويه والحنابلة؛ لأن تأخيره أكثر من ذلك يفضي إلى نسيانه والتهاون به، فالأربعون مدة الضعفاء وأولي الأشغال، ويكون ختمه في السنة تسع مرات، وأما توقيت السبع فإنه للأقوياء الذين يقوون على سهر الليالي، واحترفوا العبادة، وتفرغوا من أشغال النفس والدنيا.(٥)

وقد قرر الإمام ابن حجر أن المحكي عن إسحاق بن راهويه والحنابلة من أن أقل ما يجزئ من القراءة في كل يوم وليلة جزء من أربعين جزءًا من القرآن الكريم لا يوافق عموم قوله الله عز وجل في سورة المزمل: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾(٦) لأنه يشمل أقل من ذلك، ومن ادعى التحديد فعليه البيان، وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كم يقرأ القرآن؟ قال:"في أربعين يوما، ثم قال: في شهر، ثم قال: في عشر، ثم قال: في سبع، لم ينزل من سبع" (٧) لا دلالة فيه على المدعي.(٨)

وأما وقت الابتداء والختم فهو إلى خيرة القارئ، فإن كان ممّن يختم في الأسبوع مرّة، فقد كان عثمان بن عفان رضي اللّه عنه يبتدئ ليلة الجمعة ويختم ليلة الخميس، وقال الإمام أبو حامد الغزالي: الأفضل أن

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩٧/٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القراءات ١٩٦/٥ (٢٩٤٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري ٢١٧/٨.

(٤) انظر: فيض القدير للمناوي ٦٠/٢.

(٥) انظر: المغني لابن قدامة ٤٥٩/١، وعمدة القاري للعيني ٥٧/٢٠ ، ونوادر الأصول ٢٨٥/٢.

(٦) سورة المزمل: ٢٠.

(٧) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تحزيب القرآن ٥٦/٢ (١٣٩٥).

(٨) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩٥/٩.

يختم ختمة بالليل، وأخرى بالنهار، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل أوّل النهار وآخره.(١)

والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل؛ لما رواه الدارمي بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: "إذا وافق ختم القرآن أول الليل؛ صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإن وافق ختمه أول النهار؛ صلت عليه الملائكة حتى يمسي".(٢)

وأفضل الأوقات المختارة لقراءة الورد ما كان في الصلاة، ومذهب الشافعي وآخرين: أن تطويلَ القيام في الصلاة بالقراءة أفضلُ من تطويل السجود وغيره. وأما القراءةُ في غير الصلاة فأفضلُها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأوّل، والقراءةُ بين المغرب والعشاء محبوبة. وأما قراءةُ النهار فأفضلُها ما بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في القراءة في وقت من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة. وأما ما حكاه ابن أبي داود رحمه اللّه عن مُعان بن رفاعة رحمه اللّه عن مشيخته أنهم كرهوا القراءة بعدَ العصر وقالوا: إنها دراسة يهود، فغير مقبول ولا أصل له، ويختار من الأيام: الجمعة، والاثنين، والخميس، ويوم عَرَفَة؛ ومن الأعشار: العشر الأوّل من ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان؛ ومن الشهور: رمضان.(٣)

والترتيل مستحب لا لمجرد التدبر؛ فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة والاستعجال.(٤)

وقراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلف المتظاهرة، والأحاديث النبوية في هذا كثيرة.(٥) فقد قال الرسول ﷺ: " ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده ".(٦) وقال أيضا: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكره الله فيمن عنده ".(٧)

وخرج ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: " ما يجلسكم؟ " قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده لما هدانا

---

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٣٣.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٩٣/١، وسنن الدارمي ٥٦١/٢ (٣٤٨٣).

(٣) انظر: الأذكار للنووي ص٨٤.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٢٧٧/١.

(٥) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص٥١.

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل ٤٥٩/٥ (٣٣٧٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٧) أخرجه مسلم في باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٠٧٤/٤ (٢٦٩٩).

للإسلام ومن علينا به. فقال: " آللَّهِ ما أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ؟ " قالوا: آللَّهِ ما أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ قال: " أَمَا إني لم أَسْتَحْلِفْكُمْ لِتُهْمَةٍ لَكُمْ، إنه أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ ".(١)

ويُستحبّ لصاحب الورد إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أوّل الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقفَ يقفَ على المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيّدُ في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيراً منها في وسط الكلام المرتبط بالكلام، ولا يغترُّ الإنسانُ بكثرة الفاعلين لهذا الذي نهينا عنه ممّن لا يُراعِي هذه الآداب، وامتثِلْ ما قاله السيد الجليل أبو علي الفُضَيْل بن عِياض رضي اللّه عنه: لا تستوحشْ طرقَ الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترّ بكثرة الهالكين، ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة بكمالها أفضل من قراءة قدرها من سورة طويلة، لأنه قد يخفى الارتباط على كثير من الناس أو أكثرهم في بعض الأحوال والمواطن.(٢)

كما يُستحبّ الدعاء عند الختم استحباباً متأكداً شديداً، وينبغي أن يُلحّ في الدعاء، وأن يدعوَ بالأمور المهمة والكلمات الجامعة، وأن يكون معظم ذلك أو كله في أمور الآخرة، وأمور المسلمين، وصلاح سلطانهم، وسائر ولاة أمورهم، وفي توفيقهم للطاعات، وعِصمتهم من المخالفات، وتعاونهم على البرّ والتقوى، وقيامهم بالحقّ، واجتماعهم عليه، وظهورهم على أعداء الدين، وسائر المخالفين.(٣)

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل ٤٦٠/٥ (٣٣٧٩) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٥٨.

(٣) انظر: الأذكار للنووي ص٨٥.

المبحث الثاني

آثار الورد في تدبر القرآن وتحقيق آثاره

لا شك أن الورد القرآني ستكون له آثار نافعة بالنسبة لصاحبه، وهذه الآثار ستتباين درجاتها بحسب مقدار الورد، وبحسب مناسبته لحال صاحبه، وبحسب تفاعله معه، بل إن مقدار الورد القرآني ينبغي أن يرتبط بمدى تحقيقه للقدر الأكبر من هذه الآثار، وللدرجة الأعظم لكل أثر منها على حدة.

وفي تصوري أن أهم الآثار المترتبة على الورد القرآني تتجلى في مصاحبة القرآن في كل حال، والتعلق الوجداني به، وترسيخ مبدأ المرجعية القرآنية، والتفاعل مع النص القرآني، والانتقال من المعاني المقصودة أصلاً إلى المقصودة لزومًا، وتحقق النظرة الكلية والرؤية المقاصدية، وصيانة النص القرآني من الشطحات الذاتية، وتحقق الغاية النهائية للورد، وفرز أصحاب الأوراد لأنفسهم .. وبيان هذا كله على النحو الآتي:

أولا: مصاحبة القرآن في كل حال:

الورد القرآني يجعل الإنسان مصاحبا لكتاب الله تعالى في كل حال بحيث لا يفوته شيء من ورده، فإن فاته شيء حرص على تداركه، فعن الحسن أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه؟ فقال: "إنه بقي علي من وردي شيء، فأحببت أن أتمه، أو قال أقضيه".(١)

ومن فضل الله تعالى وسعة كرمه أنه يكتب للإنسان ثواب قراءة ورده إذا شغله عنه شاغل أو منعه منه نوم أو مرض أو سفر، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كتب له كأنما قرأه من الليل".(٢)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:"ما من امرئ تكون له صلاة يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه"(٣).

وقد أشارت رضي الله عنها إلى محافظتها على وردها في كل حال في قولها:"إني لأقرأ جزئي، أو قالت حزبي، وإني لمضطجعة على السرير".(٤)

وعن سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم كانا يقرآن أجزاءهما بعدما

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في قيام الليل وتطوع النهار، بابمن كانت له صلاة بليل ١/٤٥٦ (١٤٥٧).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٣٤٠.

يخرجان من الخلاء.(١) وعنه أيضًا قال:"ربما نزلت وأنا في السفر لأقضي حاجتي من الغائط والبول، فما ألحق بأصحابي حتى أقرأ جزءًا من القرآن قبل أن أتوضأ".(٢)

وحتى يدوم هذا الاستصحاب للورد القرآني لابد أن يكون مناسبًا لحال صاحبه وظروفه في الحال وفي المآل بدليل قول الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:"ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟ قال: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال:"فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام" قال: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال:"فإن لزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا" قال:"فصم صوم داود نبي الله ﷺ فإنه كان أعبد الناس" قال: قلت: يا نبي الله، وما صوم داود؟ قال:"كان يصوم يوما ويفطر يوما" قال:"واقرأ القرآن في كل شهر" قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال:"فاقرأه في كل عشرين" قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.قال:"فاقرأه في كل عشر" قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال:"فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، ولجسدك عليك حقا" قال: فشددت، فشدد علي. قال: وقال لي النبي ﷺ:"إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر" قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ.(٣)

ومراعاة الإنسان للأولويات ضرورية هنا، فلا ينبغي له أن يتشاغل بقراءة القرآن عن القيام بحقوق غيره عليه سواء أكانت هذه الحقوق دنيوية أو دينية.

وقد أشار النووي إلى ذلك بقوله:"وكذا مَن كان مشغولاً بنشر العلم أوغيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له".(٤)

ثانيا: التعلق الوجداني به:

في تصوري أن مجرد نزول القرآن الكريم منجمًا قد علم الصحابة رضي الله عنهم أن ينجموا قراءته كما نجم الله تنزيله، وقد ساهمت هذه الطريقة في زيادة ارتباط وجدان هذا الجيل بالقرآن الكريم، فرأيناهم يتناوبون النزول على الرسول ﷺ حتى لا يفوتهم شيء منه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٩/١.

(٣) أخرجه مسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم ٨١٣/٢ (١١٥٩).

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص٣٢.

وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.(١)

وقد فاق ارتباطُهم بالقرآن الكريم ارتباطَهم بشخص رسول الله ﷺ لأن علاقتهم ما توثقت به ﷺ إلا بسبب هذا القرآن الذي سلموا تسليمًا تامًا بأنه وحي السماء الذي شرف رسولهم ﷺ به كما شرفوا هم به أيضًا، قال تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.(٢)

ولهذا لم ترفأ لهم دمعة، ولم يهنأ لهم عيش، وكان حزنهم لموته ﷺ يفوق الوصف، لكن حزنهم الأشد وحسرتهم الأعظم كانت بسبب انقطاع هذا الوحي، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم إن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.(٣)

ومن شواهد تعلقهم الوجداني بالقرآن أنهم كانوا يتوقعون نزوله لدى كل حادثة تعرض لأحدهم، ويتخوفون تأثيره على صورتهم ومكانتهم بين الناس، إن تعرض لهم بلوم أو تأنيب ، فعن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها في ليلتي فأتتابع في ذلك إلى إن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزعن فبينما هي تخدمني ذات ليلة، إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا: لا والله، لا نفعل، **نتخوف أن ينزل فينا قرآن** أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك قال فخرجت فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبري.(٤)

ولا شك أن الورد له أثر في ربط وجدان صاحبه أيضًا بزمن تنزل القرآن حيث يتصور العصر الإسلامي الأول، وحال الذين كانت تتنَزل عليهم الآيات القرآنية، كما يتصور بيئتهم، والمفاهيم التي كانت سائدة فيها، والحالات المختلفة التي كانوا عليها، والأثر الذي أحدثته آيات القرآن فيهم، فينمو الإحساس بعظمة هذا الكتاب في نفس صاحب الورد، ويزداد ارتباطه الوجداني به، ويعمل بجد لإصلاح واقعه بتنزيله عليه.

ومما ينمي هذا الارتباط أن القرآن الكريم يُحَمِّل ألفاظه دلالات ليس في وسع شاعر أو ناثر أو مجموعة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب التناوب في العلم ٤٦/١ (٨٩).

(٢) سورة الزخرف: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن ١٩٠٧/٤ (٢٤٥٤) وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ٥٢٣/١ (١٦٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المجادلة ٤٠٥/٥ (٣٢٩٩) وقال: هذا حديث حسن.

كبيرة أو صغيرة من أساطين العربية أن تمنحها تلك الدلالات، مما يؤكد لصاحب الورد وهو يستشف معان جديدة في كل مرة يتلو فيها السورة أو الآية أو الجملة أو حتى الكلمة القرآنية ذلك البون الشاسع بين خطاب رب الأرباب، وخطاب الناس أبناء التراب.

ثالثا: ترسيخ مبدأ المرجعية القرآنية:

أقصد بالمرجعية: الجهة التي يعتبرها الناس حكمًا يردون إليه أمورهم، ولأن صاحب الورد يضرب دائمًا من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل(١) فإن هذا من شأنه ترسيخ مبدأ مرجعية القرآن الكريم في نفسه، تلك المرجعية التي تضمن سلامة الرؤية الإسلامية، وتضمن سير المسلم بل المجتمع كله وفق هذه الرؤية، وهي المرجعية التي كانت حاضرة حضوراً قوياً في التوجيه التربوي النبوي الكريم، بل إن الرسول ﷺ قد حرص على صيانة هذه المرجعية من أي تشويش يمكن أن يتأتى من مرجعيات أخرى.

فقد أتى عمرُ النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه ﷺ وقال:"والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق، فتكذّبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني".(٢)

وقد فهم الصحابة هذا الأساس فالتزموا به، وحرصوا عليه حتى بعد وفاته ﷺ فقد قال عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عن كُتُبِهِمْ وَعِنْدَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ أَقْرَبُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تقرؤونه مَحْضًا لم يُشَبْ ".(٣)

وكان أول ما قاله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه للبصريين حين قدم إليهم:"إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم عز وجل، وسنة نبيكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم".(٤)

ووصف أبو رجاء العطاردي مدى التزام أبي موسى بمقتضيات هذه المرجعية فقال:"كنا في المسجد الجامع

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال:"الحال المرتحل" قال: وما الحال المرتحل؟ قال:"الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل" قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بالقوي، حدثنا محمد بن بشار حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا صالح المري، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى عن النبي ﷺ نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس. قال أبو عيسى الترمذي: وهذا عندي أصح من حديث نصر بن علي عن الهيثم بن الربيع. انظر: سنن الترمذي ١٩٧/٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٨٧/٣. قال الهيثمي: وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما. انظر: مجمع الزوائد ١٧٤/١.

(٣) أخرجه البخاري في باب بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: كُلَّ يَوْمٍ هو في شَأْنٍ ٢٧٣٥/٦ (٧٠٨٤).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٥٧/١.

ومقرئنا أبو موسى الأشعري كأني أنظر إليه بين بردين أبيضين".(١) ثم جمع رضي الله عنه الذين قرءوا القرآن، فإذا هم قريب من ثلاثمائة، فعظم القرآن، وقال:"إن هذا القرآن كائن لكم أجرا، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن، هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زخ في قفاه، فقذفه في النار!".(٢)

وحرص التابعون على هذا المبدأ، فقد قال الحسن البصري:"إن المؤمنين شهود الله في الأرض، يعرضون أعمال بني آدم على كتاب الله، فمن وافق كتاب الله؛ حمد الله عليه، وما خالف كتاب الله؛ عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضل من الخلق".(٣) وقال أبو العالية الرياحي: "تعلموا القرآن، فإذا تعلمتموه، فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء، فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء".(٤) وقال الإمام الشافعي:"فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًا واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل لما علم منه؛ فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة... فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها".(٥)

والسبب في ذلك أن كتاب الله تعالى يتكشف عن مفاهيم جديدة تقابل إشكاليات الواقع المتغير، وتستجيب لكل ظرف تاريخي مهما كانت خصائصه، وتستوعب مستجداته وتقوم بترقيتها لتنفتح على معان أخرى في وقت لاحق، وما يتكشف عنه النص القرآني عبر الأزمان ما هو إلا جزء من مكنوناته، وقبس من نوره.

ولن يعطينا القرآن الكريم بعضه إلا إذا أعطيناه عقولنا وقلوبنا كلها، وإلا إذا جعلنا الدلالة القرآنية وسياق الخطاب الرباني هما المنطلق في تفسيرنا لآياته وجمله ومفرداته ، **وهذا** يتطلب ألا ندخل إلى عالمه بحثاً عن شواهد لأفكار مسبقة، بل يجب أن نَطَّرِحَ على أعتابه اطراح المتجرد من كل طول وحول إلا بالله عز وجل وبكلماته.

رابعا: التفاعل مع النص القرآني:

إن القرآن الكريم ينفتح على الماضي والحاضر والمستقبل من خلال معانيه الظاهرة والكامنة، والورد القرآني له تأثير عظيم في استثارة عقل صاحبه ليتفاعل مع آيات هذا الكتاب الكريم، ويغوص في دلالاتها؛ فقد قال

---

(١) جامع البيان للطبري ٢٥٢/٣٠.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٥٧/١.

(٣) المصدر السابق ١٥٨/٢.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢١٨.

(٥) أحكام القرآن للشافعي ٢١/١.

الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (١).

وهكذا كان حاله ﷺ فعن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: "سبحان ربي العظيم" فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: "سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد فقال: "سبحان ربي الأعلى" فكان سجوده قريبا من قيامه. (٢) ونعتت السيدة أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفًا حرفًا. (٣)

وسبب ذلك أن قراءة ألفاظ القرآن الكريم وسيلة لتحصيل معانيها، فقد قال الإمام الشاطبي: "الاعتناء بالمعانى المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم؛ بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضًا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهومًا دونه". (٤)

وينبغي الموازنة في الفهم بين الظاهر والباطن، فالظاهر: كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن الكريم إلا عليها، والباطن: كل ما كان من المعاني التي تقتضي تحقيق المخاطَب بوصف العبودية والإقرار بالربوبية، فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم فبمقدار ما فاته من باطن القرآن الكريم فهمًا وعلمًا، وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه. (٥)

ومن هنا لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن الكريم ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب؛ فظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم وما لا بد فيها من استماع كثير؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، فما كان الرجوع فيه إلى لغتهم؛ فلابد من معرفتها أو معرفة أكثرها، ليستدل بها على أن فهم كلام الله تعالى لا غاية له؛ كما لا نهاية للمتكلم به، فأما الاستقصاء فلا

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل١/٥٣٦ (٧٧٢).

(٣) أخرجه الترمذي في باب ما جاء كيف كان قراءة النبي ﷺ ٥/١٨٢ (٢٩٢٣). وقال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من حديث لَيْثِ بن سَعْدٍ عن بن أبي مُلَيْكَةَ عن يَعْلَى بن مَمْلَكٍ عن أُمِّ سَلَمَةَ وقد رَوَى بن جُرَيْجٍ هذا الحديث عن بن أبي مُلَيْكَةَ عن أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النبي ﷺ كان يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ وَحَدِيثُ لَيْثٍ أَصَحُّ.

(٤) الموافقات للشاطبي ٢/٨٧.

(٥) انظر: المصدر السابق ٣/٣٨٨-٣٩٠.

مطمع فيه للبشر، ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن الكريم شيئًا، ومن أحاط بظاهر التفسير وهو معنى الألفاظ في اللغة لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني.(١)

إنني مع القول بأن لكل آية في القرآن الكريم ظهرًا وبطنًا، ولكل حرف حدًا، ولكل حد مطلعًا. **على أساس** تفسير ابن النقيب لهذا في قوله: **ظاهرها**: ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، **وباطنها**: ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق، ومعنى "ولكل حرف حد" أن لكل حرف منتهي فيما أراده الله تعالى من معناه، ومعنى "ولكل حد مطلع" أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعًا يتوصل به إلى معرفته يكفي بعد ذلك في المقصود.(٢)

ولا شك أن الورد القرآني القليل في مقداره مع التدبر والفهم للمعاني الظاهرة، وإدراك بعض المعاني الباطنة، أفضل من الورد الكثير في مقداره بدون تدبر وفهم، فقد سئل الرسول ﷺ عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث فقال:"لا، ومن وجد منكم نشاطًا فليجعله في حسن تلاوتها".(٣)

قال ابن كثير:"والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا، ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب".(٤)

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع".(٥) وقال أيضا: "لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة".(٦) وقال يحي بن سعيد: كنت أنا ومحمد بن يحيى بن حبان جالسين، فدعا رجلاً، فقال: أخبرني بالذي سمعت من أبيك، فقال الرجل: أخبرني أبي أنه أتى زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال له: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال زيد: حسن، ولأن أقرأه في نصف أو عشر أحب إلى، وسلني لم ذاك؟ قال: فإني أسألك. قال زيد: لكي أتدبره وأقف عليه.(٧) وعن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: أقرأ القرآن في كل ليلة؟ فقال: لأن أقرأ سورة واحدة أحب إلي، فإن

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٥٥/٢ بتصرف.

(٢) روح المعاني للألوسي ٧/١.

(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢٨٥/٢-٢٨٦.

(٤) فضائل القرآن لابن كثير ص٩٨.

(٥) صحيح مسلم ٥٦٣/١.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٣٥/٤.

(٧) أخرجه مالك في كتاب القرآن، باب الرخصة في قراءة القرآن على غير وضوء ٢٠٠/١ (٤٧٢).

كنت لابد فاعلا فاقرأ ما تسمعه أذناك ويفقهه قلبك.(١)

وسئل مجاهد عن رجلين قرأ أحدهما البقرة، وقرأ الآخر البقرة وآل عمران، فكان ركوعهما وسجودهما واحدا وجلوسهما سواء أيهما أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾.(٢)

خامسا: الانتقال من المعاني المقصودة أصلاً إلى المقصودة لزومًا:

يمكن أن يكون للنص القرآني معنى مقصود أصلي مدلول عليه نطقاً، ومعنى مقصود أصلي مدلول عليه لزوماً، ومعنى مقصود تابع مدلول عليه نطقاً، ومعنى مقصود تابع مدلول عليه لزوماً، ولا شك أن كثرة تردد صاحب الورد على النص القرآني تفتح له أبوابًا من الفهم تمكنه من الانتقال من المعاني المقصودة أصلا إلى المعاني المقصودة لزومًا.

يدل على ذلك قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله!؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى:﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: فإذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.(٣)

قال الشنقيطي: "وفي هذه الآية دلالة الإيماء كما قالوا، ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر مع كبار المهاجرين والأنصار".(٤) وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات وإنما يتمكن من ذلك ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي رضي الله عنه: أو فهمًا يؤتيه الله رجلا في القرآن.(٥)

فإن قيل: وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى؟ فالجواب أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجًا دل ذلك على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال، وأن أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقًا واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار، باب ما جاء في تحزيب القرآن ٤٧٨/٢.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٦، وانظر: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله:﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ ١٩٠١/٤ (٤٦٨٦).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي ١٤٢/٩.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٧٣٦/٨.

قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت، كما أنه تنبيه على قرب الأجل، وسبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة.(١)

وفي ذلك دليل على أن معاني القرآن الكريم تستفاد من ألفاظه ومفهومها؛ لأن اللفظ إما أن يدل على الحكم بصيغته ومنظومه، أو بفحواه ومفهومه، أو بمعناه ومعقوله، فهذه ثلاثة فنون: المنظوم والمفهوم والمعقول.(٢) وهذا يعني أن المعاني نوعان: معان هن بنات ألفاظ، ومعان هن بنات معان، وأسلم الطرق إلى معرفة مراد المتكلم من كلامه هي معرفة لغته أولا، ثم سياقات استعماله لها، ومقامات خطابه للمتلقين في زمن الخطاب، والأحوال المصاحبة لكل ذلك.

وقد روي أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام، اذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها، فطلب حجامًا، فقالت: ثكلتك أمك، إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة في اللفظ ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل.(٣)

سادسا: تحقق النظرة الكلية والرؤية المقاصدية:

المتأمل في القرآن الكريم يراه وحدة متماسكة متآلفة على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات الجملة الواحدة من التناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابًا حسن السمت، فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء موضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متآلفة، تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة، ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.(٤)

وقد استوعب القرآن الكريم الكون كله، فلم يدع جانبًا من جوانبه إلا وأعطاه التفسير المناسب له، كما استوعب الإنسان من مختلف زواياه، فنظم له كل شأن من شؤونه، قال عبد الله بن مسعود: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن".(٥)

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ١٥١/٣٢.

(٢) انظر: المستصفى لأبي حامد الغزالي ص١٨٠.

(٣) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ٩٥/١.

(٤) مناهل العرفان للزرقاني ٢٢٧/٢.

(٥) روح المعاني للألوسي ٧/١.

ولا شك أن الورد القرآني يتيح لصاحبه هذه النظرة الكلية الشاملة لجوانب هذا الكتاب الكريم؛ لأنه يكثر من المرور على كافة الآيات والسور بانتظام، فيرد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وهذه القاعدة منطلق في فهم التصور القرآني حول أي قضية أو مسألة فهمًا صحيحًا يلملم شتات الإنسان المعرفي، ويتيح له إدراك بنائية وحي الله عز وجل ووحدته العضوية، ويجنبه الوقوع في أضرب من التعضية⁽¹⁾، التي يترتب عليها تضييق مفاهيم قرآنية بعد أن كانت ما أوسعها، وتوسيع مفاهيم بعد أن كانت ما أضيقها.

ومن شأن هذه النظرة الكلية التي يحققها الورد القرآني أن تضع الرؤية المقاصدية في قمة أولويات صاحبها، فيحرص على الوصول إلى مقاصد الله تعالى في كتابِه، ويتتبع كل ما يوضِّح المراد من هذه المقاصد، أو يؤدي إلى فهمها أكمل فهمٍ؛ لأن الشريعة أحكام تنطوي على مقاصد، ومقاصد تنطوي على أحكام ، ومن فاته استنباط مقاصد القرآن وقع في التخبط واضطرب في فهم الشريعة، حتى لتجد أحدهم آخذا ببعض جزئياتها في هدم كلياتها، حتى يصير منها إلى ما ظهر له ببادئ رأيه من غير إحاطة بمعانيها، ولا راجع رجوع الافتقار إليها، ولا مسلم لما روى عنهم فى فهمها، ولا راجع إلى الله ورسوله في أمرها.⁽²⁾

وقد استنبط الطاهر بن عاشور ثمانية مقاصد للقرآن الكريم يمكن أن يتتبعها صاحب الورد وهو يتقلب في جنان آيات القرآن الكريم، وتتمثل في: إصلاح الاعتقاد، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، وتهذيب الأخلاق، والتشريع وهو الأحكام خاصة وعامة، وسياسة الأمة، وفيه صلاح الأمة وحفظ نظامها، والقصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والحذر من مساويهم، والتعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع، وعلم الأخبار والمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ.⁽³⁾

سابعا: صيانة النص القرآني من الشطحات الذاتية:

لقد نَزَلَ القرآن الكريم بِلُغَةِ العرب، ووفق طرقهم في التعبير، ولا شك أن محافظة المسلم على ورده يحقق له مع القرآن الكريم ثمرة استقامة اللفظ، وفائدة استقامة المفهوم، ونعمة استقامة التنزيل على الواقع.

وهذا يقتضي اعتبار ألفاظ القرآن مدخلاً إلى تفسيره وفهم معانيه، ولهذا قال الراغب: " إن أول ما يحتاج أن يُشتغَل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني ألفاظ القرآن في كونه أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء

---

(١) التعضية: التفريق، يقال: عضيت الشيء إذا فرقته، ومنه قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْءَانَ عِضِينَ. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨/٥.

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي ١٧٤/٤-١٧٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩/١-٢٠.

ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعًا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم".(١)

وهذا يعني أن نهتم باللفظ القرآني داخل نصه وليس بمعزل عنه، وبالنص من خلال اللفظ لا بعيدًا عنه، فليس لقارئ القرآن الكريم أن يطلق لِذَاته العِنان، بحيث تطغي رؤاه الخاصة على دلالات ألفاظه وعباراته المنبثقة من ثوابت اللغة التي تنزل بها، والمنضبطة بالعلوم والقواعد التي لا يجوز اقتحام ساحة التفسير دون الإلمام بها؛ كالعلم باللغة العربية؛ والحديث وعلومه، والقراءات، وأصولِ الفقه، والعلومِ التي تتصِلُ بالنص القرآني نَفْسِهِ؛ كعلم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وما شاكَلَ ذلك.

قال الزركشي: "ومعلوم أن تفسيرَه يكون بعضه من قبيل بَسط الألفاظِ الوجيزةِ وكشف معانيها، وبعضه من قبيل ترجيح بعضِ الاحتمالاتِ على بعضٍ لبلاغتِهِ ولُطف معانِيه ولهذا لا يُستغنى عن قانونٍ عام يُعَوَّلُ في تفسيره عليه ويُرجَع في تفسيره إليه: مِنْ معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها وسياقه وظاهره وباطنه وغيرِ ذلكَ مما لا يدخل تحت الوهمِ ويدِقُّ عنه الفهم ... وفي هذا تتفاوت الأذهان وتتسابق في النظرِ إليه مسابقة الرِّهَان فمن سابق بفهمه وراشق كبد الرَّمِيَّةِ بِسهمه، وآخر رَمَى فَأَشْوَى وَخَبَطَ في النظر خبط عَشْوَا".(٢)

ووجوه الخطابِ في القرآن الكريمِ كثيرة ومتنوعة، عَدَّهَا العلماء المحققون نحو نيّف وثلاثين نوعاً من بين هذه الوجوه وأهمها: خطاب العام، والخاص، وخطاب الجنس، والنوع، والعين، وخطاب المدح، والذم، وخطاب الكرامة، والإهانة، وخطاب الجمع بلفظ الواحد، وخطاب الواحد بلفظ الجمع، وخطاب الواحد والجمع بلفظ التثنية، وخطاب الاثنين بلفظ الواحد، وخطاب العين المراد به غيره، وخطاب التهييج، وخطاب الإغضاب، وخطاب التحريض، وخطاب التنفير، وخطاب التحنُّن، والاستعطاف، وخطاب التحبيب ، وخطاب التعجيز، وخطاب التحسير، وخطاب التكذيب، وخطاب التشريف.

ومن هنا استعظم السلف الصالح أمر تفسير كتاب الله عز وجل حتى قال مسروقٌ وهو من أئمةِ التابعينَ في التفسير:"اتقوا التفسيرَ؛ فإنَّمَا هُوَ الروايةُ عنِ اللهِ".(٣) وقال عبيد الله بن عمر:"لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع".(٤)

وليس هذا حجرًا على الإنسان – أيا كانت درجة علمه ومستوى صلاحه – في التأمُّلِ في النص القرآني، وتذوقه والتفاعل معه، ولكنه حجر على ما يدعيه البعض من الاستغراق الذي يؤدي إلى نسيان طبيعة

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب، ص "د" من المقدمة.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٦/١.

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ٣٧٤/١٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/١.

النص، أو تجاهل دلالات ألفاظه وعباراته، والخروج عليها، وتحميلها فوق ما تحتمل من المعاني، فهذا بلا شك يقود إلى كثير من المزَالِقِ والانحرافات، كما رأينا في شطَحاتِ بعض الصوفية في التفسير، تلك الشطحات التي تستند إلى الخيال الجارف، والغلو الذي لا يعتمد على قواعِد ثابتة، أو يَفِيء إلى أصول التفسير المقررة ، وليس لأحد أن يحتج بأن الموهبة يعتد بها في التفسير، لأن الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد.(١)

وعلم الموهبة – بعد التسليم بأنه كسبي – إنما يُحتاج إليه في الإطلاع على الأسرار لا في أصل فهم معاني القرآن الكريم، وكثير من المفسرين بصدد الثاني، والواقفون على الأسرار القرآنية – وقليل ما هم – لا يستطيعون التعبير عن كثير مما أُفيض عليهم، فضلاً عن تحريره، وإقامة البرهان عليه.(٢) قال الزركشي: "واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفى قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض".(٣)

ثامنا: تحقق الغاية النهائية للورد:

الغاية النهائية للورد القرآني هي تطبيق مضامينه والعمل بما يتطلبه، لأن كل أمر لا ينبني عليها عمل فالخوض فيه خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وكل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون حيثُ هو وسيلة إلى التعبد به لله عز وجل.(٤)

ويترتب على هذا إدراك أمر في غاية الأهمية، وهو أن النظر أو التدبر في متشابه النصوص القرآنية، وما ليس تحته عمل منها، أو لا يوصل إلى عمل بطريق مباشر، أو غير مباشر، ليس مقصودًا شرعًا، فالتدبر مرهون بما تحته عمل.

وهذا يؤكد صحة منهج السلف الصالح في التعامل مع آيات الصفات بإمرارها كما جاءت دون الخوض فيها، لأن الله تعالى يقول:﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥)، ويقول:﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.(٦)

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٤٧٩.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ١/٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/١٨٠-١٨١.

(٤) انظر: الموافقات للشاطبي ١/٦٠.

(٥) سورة الأنعام: ١٥٥.

(٦) سورة الزخرف: ٣.

فالمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل عليهم السلام من وحي الله تعالى، والعقل يتضمن العلم والعمل، فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الأول ويحذر الثاني لم يكن عاقلاً.(١) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون".(٢) وقال الفضيل بن عياض: إنما نزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملا. قيل: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه.(٣) وقرأ الحسن رضي الله عنه قول الله تعالى:﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٤) فقال:"وما فقال:"وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، فما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل".(٥) ولهذا قيل: اقرأ القرآن ما نهاك عن المعصية، وأمرك بالطاعة، أي ما دمت مؤتمرا بأمره منتهيًا بنهيه وزجره، لأن قراءته بدون ذلك لقلقة لسان تجر صاحبها إلى النيران، إذ من لم ينته بنهيه، وينزجر بزجره؛ فقد جعله وراء ظهره، ومن جعله خلفه؛ ساقه إلى النار، ومن جعله إمامه؛ قاده إلى الجنة.(٦)

ومن هنا قرأ السلف الصالح القرآن الكريم ليتلقوا أمرَ الله في شؤون حياتهم، وقد فتح لهم هذا النهج آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة، لأن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل.(٧)

يقول أبو عبد الرحمن السلمي:"حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا".(٨)

تاسعا: فرز أصحاب الأوراد لأنفسهم:

---

(١) انظر: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١٥/١٠٨.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/٢٣١.

(٣) اقتضاء العلم العمل لأبي بكر البغدادي ص٧٦.

(٤) سورة ص: ٢٩.

(٥) فهم القرآن للحارث المحاسبي ص٢٧٥.

(٦) انظر: فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي ٢/٦١–٦٢.

(٧) انظر: معالم في الطريق لسيد قطب ص١٨.

(٨) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٤٦٨.

أعتقد أن الورد القرآني بآثاره السابقة يتيح لأصحاب الأوراد فرز أنفسهم، فليسوا جميعًا في مرتبة واحدة من ناحية بواعثهم على الورد، وبالتالي من ناحية تحقق آثاره فيهم.

فهناك الطالب الذي فرض على نفسه الورد حرصًا على متانة حفظه للقرآن الكريم حتى يتجاوز اختبارات أو مسابقات، ولهذا تراه غافلاً عن التأمل في معاني ورده، وإن تحصَّل على شيء منها جبراً عنه، فإنه لا يجد في نفسه حرصًا على الاحتفاظ به في ذاكرته، فتنفلت هذه المعاني من ذهنه فور انتقاله لآيات أخرى، بل إنه في الأغلب ينقطع تمامًا عن الورد بمجرد تجاوزه لمرحلة الاختبارات، أو انتهائه من المسابقات.

ومثله حافظ القرآن الكريم الذي يتكسب من وراء حفظه، فتراه يواظب على ورد يومي يمكنه من ختم القرآن الكريم كل فترة وجيزة لا تتجاوز خمسة أيام في الأغلب، وقد سألت بعضهم عن سر حرصه على هذه المدة؛ فقال لي: من قرأ الخمس أمن اللبس، وهذه صنعتي، فأنا أقرأ وأقرئ، ولا ينبغي أن أخطئ، حتى لا أفقد مصداقيتي بين تلاميذي، وبعضهم يقول زبائني. مع أنه لا يعير أدني اهتمام لتحقق آثار ورده القرآني في نفسه وواقعه. ومثل هذا إذا لاح له شيء مما طلب؛ زهد في التعلم، ورغب في التقدم، وصعب عليه إحكام ما ابتدأ فيه، وأنف من الاعتراف بالتقصير، فرضي بحاكم عقله، وقاس بجهله، فصار ممن سئل فأفتى بغير علم فضل وأضل.(١)

وهذا وذاك نقول لهما: إن مجرد تأبط نص القرآن الكريم ليس دليلاً على الرشد، ونذكرهما بقول رسول الله ﷺ:"إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار".(٢)

ونذكرهما أيضا بقوله ﷺ:"من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" قال سريج في حديثه: يعنى ريحها.(٣) ونعظهما بقول عبد الله بن مسعود

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي ٦٨/١.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ١٥١٣/٣(١٩٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣٨/٢.

رضي الله عنه: "لا تعلموا العلم لثلاث؛ لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذهب ما سواه".(١) وبقوله رضي الله عنه: "كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت قالوا غيرت السنة!؟ قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة"(٢). ونرجو لهما ما قاله الحسن البصري:"لقد طلب أقوام العلم، ما أردوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده".(٣) وما قاله سفيان الثوري: "كنا نطلب العلم للدنيا، فجرنا إلى الآخرة"(٤) وما قاله حبيب بن ثابت:" طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية، ثم جاءت النية بعد"(٥). وما قاله معمر:"إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم، حتى يكون لله".(٦)

وهناك صاحب الورد الذي يقصد تحصيل الثواب ولا يقصد الوصول إلى أي معنى؛ لأنه فاقد لوسيلة الفهم وهي اللسان العربي.

ومثل هذا يمكن أن توضع بين يديه ترجمة لمعاني القرآن الكريم بلغته تتيح له تحصيل القدر الأكبر من آثار الورد القرآني والدرجة الأعظم من كل اثر على حدة.

وهناك صاحب الورد الذي يكتفي بالوصول إلى المقصود القريب للتعبير القرآني، ولا يكلِّف نفسَه عناء الوصول إلى المعاني الأعمق، لخفائها وبعدها بعض الشيء، ولذلك تراه يقرأ ورده في مصحف مفسر، فإن صعبت عليه لفظة نظر في الهامش ليعرفها.

وهذا وسابقه يحققان جزءاً من غاية الورد القرآني، والجزء لا يناقض الكل، وإن كان يقصر عنه، فنطالبهم بالعمل على تحقيق الغاية بكاملها، ونهيئ لهم الأسباب التي تمكنهم من ذلك.

أما صاحب الورد المثالي فهو الذي لا يألو جهدا في كل ختمة يختمها كي تتحقق فيه آثار ورده، فتراه يتعمق في فهم النص؛ لاستثمار كافة دلالاته، وتراه يقوم نفسه عقب كل ختمة ليعرف إلى أي الدرجات قد

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١٧٥/٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٥٦٠/٤.

(٣) قواعد التحديث للقاسمي ص٣٩٩.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٥) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٦) تدريب الراوي للسيوطي ١٣٠/٢.

ارتقى، فهو يضع نصب عينيه قول الله تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ⁽¹⁾ وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾.⁽²⁾

****

---

(١) سورة الأعراف: ١٧١.

(٢) سورة الزمر: ١٨.

النتائج

أولاً: تباينت أقوال العلماء في مدة ختم القرآن الكريم، فقد استحب ابن قدامة أن يقرأ في كل سبعة أيام ليكون له ختمة في كل أسبوع، وإن قرأه في ثلاث فحسن، والسبع أولى عند شيخ الإسلام ابن تيمية، وترخّص جماعات من السلف في ختمه في أقلّ من ثلاثة أيام، وكره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ولم يجوز ابن حزم قراءة أكثر من ثلث القرآن في يوم وليلة.

ثانيًا: القول المختار في مقدار الورد القرآني أنه لا تقدير فيه، وإنما هو بحسب النشاط والقوة، فعلى هذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر؛ استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بالمقصود من التدبر وإخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرأه هذرمة.

ثالثًا: وقت الابتداء والختم يرجع إلى خيرة القارئ، والأفضل الختم أول النهار أو أول الليل، وأفضل الأوقات المختارة لقراءة الورد ما كان في الصلاة، وفي غير الصلاة قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأوّل، وأما قراءةُ النهار فأفضلُها ما بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في القراءة في وقت من الأوقات.

رابعًا: الترتيل مستحب في قراءة الورد القرآني؛ لأنه أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في قلب صاحبه، وقراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلف المتظاهرة.

خامسًا: يُستحبّ لصاحب الورد إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أوّل الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف أن يقف على المرتبط، وعند انتهاء الكلام، كما يُستحبّ الدعاء عند الختم استحبابًا متأكدًا شديدًا، وينبغي أن يُلحّ في الدعاء، وأن يدعوَ بالأمور المهمة والكلمات الجامعة، وأن يكون معظم ذلك في أمور الآخرة، وأمور المسلمين.

سادسًا: آثار الورد القرآني تتمثل في مصاحبة القرآن في كل حال، والتعلق الوجداني به، وترسيخ مبدأ المرجعية القرآنية، والتفاعل مع النص القرآني، والانتقال من المعاني المقصودة أصلاً إلى المقصودة لزومًا، وتحقق النظرة الكلية والرؤية المقاصدية، وصيانة النص القرآني من الشطحات الذاتية، وتحقق الغاية النهائية للورد، وفرز أصحاب الأوراد لأنفسهم.

والحمد لله رب العالمين

المراجع

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار الفكر ١٩٩٦م بيروت.

- أحكام القرآن للشافعي، دار الكتب العلمية ١٤٠٠ه بيروت.

- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، دار الحديث١٤٠٤ه القاهرة.

- إحياء علوم الدين لبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

- الأذكار للنووي، دار الكتاب العربي ١٤٠٤ه بيروت.

- الاستذكار لابن عبد البر، دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م بيروت.

- أضواء البيان للشنقيطي، دار الفكر للطباعة ١٤١٥ه بيروت .

- اقتضاء العلم العمل للبغدادي، المكتب الإسلامي١٣٩٧ه بيروت.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي، دار المعرفة ١٣٩١ه بيروت.

- البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني، مركز المخطوطات ١٤١٤ه الكويت.

- التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، الوكالة العامة للتوزيع ١٤٠٣ه دمشق.

- تحفة الأحوذي للمباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ.

- تدريب الراوي للسيوطي، مكتبة الرياض، الرياض، بدون تاريخ.

- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية ١٩٨٤م تونس.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار الفكر ١٤٠١ه بيروت.

- التفسير الكبير للفخر الرازي، دار الكتب العلمية ١٤٢١ه بيروت.

- جامع البيان للطبري، دار الفكر ١٤٠٥ه بيروت.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

- حلية الأولياء لأبي نعيم، دار الكتاب العربي ١٤٠٥ه بيروت.

- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- زاد المعاد لابن القيم، مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ بيروت.
- سنن أبي داود ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- سنن الترمذي ، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.
- سنن ابن ماجه ، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- سنن النسائي، دار الكتب العلمية ١٩٩١م بيروت.
- شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث ١٣٩٢هـ بيروت.
- صحيح البخاري ، دار ابن كثير ١٩٨٧م بيروت.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.
- عمدة القاري للعيني، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.
- عون المعبود للعظيم آبادي، دار الكتب العلمية ١٩٩٥م بيروت.
- الفائق للزمخشري، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت، بدون تاريخ.
- فتح الباري لابن حجر، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- فضائل القرآن لابن كثير، دار القبلة للثقافة ١٩٨٨م السعودية.
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ السعودية.
- فهم القرآن للحارث المحاسبي دار الكندي ١٣٩٨هـ بيروت.
- فيض القدير للمناوي، المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ القاهرة.
- قواعد التحديث للقاسمي، دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ بيروت.
- كتب ورسائل ابن تيمية في التفسير، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ القاهرة.
- المحلى لابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.
- المستدرك للحاكم، دار الكتب العلمية ١٤١١هـ بيروت.

– المستصفى لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ١٤١٣ه بيروت.

– المتطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، دار الكتب العلمية ١٤٠٦ه بيروت.

– مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاري.

– مصنف ابن أبي شيبة، مكتبة الرشد ١٤٠٩ه الرياض.

– مصنف عبد الرزاق، المكتب الإسلامي ١٤٠٣ه بيروت.

– معالم في الطريق لسيد قطب، دار الشروق ١٩٨٣م بيروت.

– المعجم الكبير للطبراني، مكتبة العلوم والحكم ١٩٨٣م الموصل.

– معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مكتبة الخانجي ١٩٨١م القاهرة.

– المغني لابن قدامة المقدسي، دار الفكر ١٤٠٥ه بيروت.

– المفردات في غريب القرآن للراغب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.

– مناهل العرفان للزرقاني، دار الفكر ١٩٩٦م بيروت.

– الموافقات للشاطبي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

– الموطأ للإمام مالك، دار إحياء التراث، القاهرة ، بدون تاريخ.

– النهاية في غريب الأثر لابن الجزري، المكتبة العلمية ١٣٩٩ه بيروت.

– نوادر الأصول للحكيم الترمذي، دار الجيل ١٩٩٢ م بيروت .

– التبيان في آداب حملة القرآن للنووي، الوكالة العامة ١٤٠٣ه دمشق .